تحوّل " نبوخذنصر "

اقرأ من فضلك الأصحاح الرابع.
كان السبب الذي من أجله أطلقت على هذا الفصل " تحوّل نبوخذ نصر"؛ هو التحوّل العظيم الذي حدث في حياة الملك، وورد هذا التحوّل في مقدمة الأصحاح.

"نبوخذ نصر" قبل أحداث الأصحاح الرابع:
في الأصحاح الأول، عرفنا سياسته الرائعة لاستيعاب الأسرى اليهود في خدمته المدنيّة، ووضعهم في مواقع قيادية في إمبراطوريته. ورأينا الفتيان الأربعة الذين اختيروا لإعادة التنشئة الأساسية، قد رفضوا أن يأكلوا من الطعام الذي عيَّنه الملك لهم؛ لأنه كان مقدَّما من قبل للأوثان. فأكرمهم الله بسبب الأسلوب الذي أكرموه به، وأعطاهم معرفة وعقلا في كل كتابة وحكمة (1: 17) فاقت كل زملائهم، بل وجعلهم أفضل من أساتذتهم.

وعند نهاية الأيام المحدَّدة، كلَّمهم الملك، فلم يجد بين الطلاب جميعا مثل "دانيآل" و"حننيا" و"ميشائيل" و"عزريا"، ورآهم رجالا لم ير مثلهم من قبل. أربعة فتيان، في السابعة عشر من عمرهم، وجدهم أحكم من أكبر مستشاريه (1: 19).

لقد تميَّزوا عن غيرهم، لأنهم في الحقيقة يخافون ويتَّقون "يهوه". لا بد وأن هذا قد ترك أثرا عميقا، في ذهن "نبوخذ نصر".

لا يوجد أدنى شك، أن تغيير أي شخص لا يأتي بمجرد الاتصال بالمؤمنين. وهذه حقيقة، حتى وإن كان أولئك المؤمنون متميزين جدا مثلما كان الأربعة المذكورون. كما هو واضح في الأصحاح الثاني، إن "نبوخذ نصر" لم يزل وثنيا. لقد رأيناه في أسوأ الحالات. رأيناه منزعجا، غاضبا، بلا رأفة.

كان غاضبا على أولئك الحكماء، الذين فشلوا في أن يخبروه بحُلمه وبتعبيره؛ مما جعله متسرِّعا في اتخاذ قراره، بإعدام كل الحكماء الذين في مملكته. أمرٌ لا يصدر إلا من إنسان غير تقي.

ثم يأتي "دانيآل" معلناً، أن الفضل يرجع كله إلى الله، وفسَّر له الحلم، بأن مملكة أرضية ستُفسح الطريق لأخرى، إلى أن تسود الإمبراطورية الرابعة العظيمة، وحينذاك ستبدأ مملكة أخرى لن تنتهي أبدا.

ما لم يستطع المستشارون الوثنيون أن يروه، كُشِف لـ"دانيآل" التقي؛ استجابة لصلاة البقية التقيّة المتَّحدة في صلاتها. رأى "نبوخذنصر" مدى عجز وإفلاس دِينِهِ، ويعلن اعترافه في (2: 47) مؤكدا مدى إعجابه وتعجبه. لقد اعترف بأن "يهوه" موجود، وبهذا تَقدَّم خطوات كثيرة نحو الإيمان.

اعترف "نبوخذ نصر" أن "يهوه" إله حقيقي، وأنه هو الإله الأعظم فوق الكل، لكنه لم يصل بعد إلى نقطة الإقرار، بأنه هو الإله الوحيد.

لكن العقل البشري سرعان ما ينسَى!!
فكثيرا ما يظهر لنا الشيء عظيما وذا أهمية هائلة، وبمجرد مرور وقت قصير، يتبخَّر، ولا يكون له مكان في عقولنا. فهذا الملك الذي كان لديه – في نهاية الأصحاح الثاني – إحساس عميق نحو الله، يبدو وأنه فقد هذا الإحساس مع بداية الأصحاح الثالث؛ لذا تراه ينصب تمثالا بشعا، ويصدر أمره بعبادة هذا التمثال.

أين شهادته القويَّة المُعلِنة أن الله هو الإله الأعظم من الكل؟! إنه يتصرف في تناقض مباشر، مع الحقائق التي اعترف بها منذ قليل. كلمات فمه لم تمس قلبه. إرادته لم تخضع لكلماته.

لا تعتقد أن تصرُّف "نبوخذ نصر" هذا غير عادي. لا، فهناك العديد من الناس يفعلون مثلما فعل، يسمعون حق الإنجيل، ويكون له تأثير عميق في داخلهم، يستحوذ عليهم، ويستأثرهم ويثيرهم، ويصبحون في حذر بما يسمعون، لكن، هناك شيء ما بداخلهم، لا يريد أن يكون هذا الأمر حقيقة؛ فينقلبون على أعقابهم. يحاولون أن يعيشوا، كما لو أن الحق الذي اعترفوا به مؤخرا، ليس حقيقة، فلا يجعلون له مكانا في حياتهم.

تخيَّل أن شخصا سافر في عطلة، فوجد المنزل الذي استأجره بجانب مطرقة بخار صناعية، تعمل لمدة أربع وعشرين ساعة يوميا، ففي الليلة الأولى هرب النوم من عينيه؛ إذ لم يسبق له أن سمع صوتا كالرعد أثناء نومه، هزَّ سريره هزَّة شديدة. وحدث نفس الإزعاج في الليلة التالية، ومع أنه لا يختلف في شيء عن الليلة السابقة، إلا أنه بدأ يغفو لبضع دقائق. وفي خلال أسبوع اعتاد عليها، فنام معظم الليل. وقبل نهاية العطلة أمكنه النوم بشكل عادي، مثل أولئك الذين يعيشون في تلك القرية كل حياتهم.

إن ما أفزعه بشكل كبير في أول ليلة، لم يعُد له أي تأثير عليه بعد أسبوع، كما لو أنه لم يكن هناك أي صوت البته.

تلك هي حال الناس الذين يتعرَّضون للأمور الإلهية، عند سماعهم عنها لأول مرة، فإنهم يضطربون، لكنهم في النهاية لا يتأثرون على الإطلاق بما يسمعون، وبهذا فهم ليسوا الآن أقرب إلى السجود لله عما كانوا قبلا.

تلك كانت حالة "نبوخذ نصر" في الأصحاح الثالث. وبالتأكيد كان على الله أن يجعله يفيق. إن غضبه الشديد؛ أدَّى به إلى أن يُلقي المنشقِّين الثلاثة، في أتون النار المتَّقِدة، لكن نجاتهم المعجزية، مقترنة بظهور ابن الله بصحبتهم أمام عينيه؛ جعلته يعترف(3: 28و29). إن اعترافه ب"يهوه" الذي نطق به من قبل -بأنه الإله الأعظم- يتَّضح أكثر الآن، إذ اعترف بأن لا إله غيره، يمكنه أن يخلّص مثلما فعل هو. لقد اقترب من الإقرار بأنه لا إله إلا هو، مع ذلك لم ترد أية إشارة، تفيد أنه قد وصل إلى حد السجود أمام الله وعبادته. لقد بَقي عنيدا كما كان من قبل.

ولنستخدم بعض المصطلحات المعبِّرة. لقد كان له كلا من notitia وassensus ولكن لم يحدث له fiducia .

وبكلمات أخرى، إنه قد سمع الحق وأدركه على حقيقته، لكنه لم يُلزم نفسه بما قد عرف. لم يعتمد عليه ولم يجعله أساس ثقته.

إن قصة "نبوخذ نصر" تجعلنا نرى طول أناة الله. لقد تكلم الله إليه بشكل غير مباشر في الأصحاح الأول، وبشكل مباشر في الأصحاح الثاني، ثم هزَّه هزَّة عنيفة في الأصحاح الثالث. لقد قرع الرب بابه. وقرع، وقرع ثالثة، إلا أن قلبه لم يُفتح لله حتى الآن.

في الأصحاح الرابع سوف يقرع الرب مرة أخرى.
إن نعمة الله، نعمة لها سلطانها. سوف يقرع الرب حتى ينزع الباب من مفصّلاته. لقد قرر الله أن يدخل قلب "نبوخذ نصر"؛ لذا سيدخله حتما.

"نبوخذ نصر" بعد أحداث الأصحاح الرابع
بنظرة فاحصة واعية إلى بداية الأصحاح وإلى نهايته، يمكننا أن نرى مدى التغيير الذي حدث لـ"نبوخذ نصر"؛ بسبب الأحداث التي وردت في هذا الأصحاح.

يبدأ الأصحاح (أعداد1- 3) بإعلان من "نبوخذ نصر" – إعلان يميِّز أسلوب الملوك البابليين – لقد مَلَّك نفسه على كل العالم.

ولكن العدد الثاني يأسرنا، ففيه يعلن الملك صراحة، أن الرب قد عمل في حياته.

إن ترجمة الكلمة العبرية "آيات"، تعني حدوث مُعجزة، وكلمة "عجائب" تعني عمل شيء مُعجزي؛ كانت له تأثيرات عجيبة.

إن "نبوخذ نصر" يقول لقرَّائه: "إن الله العلي قد عمل في حياتي. إنه قد عمل شيئا مُعجزيا، كانت له تأثيرات عظيمة."

والعدد الثالث ليس أقل سحرا، إنه يشيد بعظمة المعجزات التي يعملها الرب، ويهتف مبتهجا، للآثار الرائعة التي تنتج عنها في حياة الناس.

ياله من اعتراف مهيب! نلمس فيه تواضعا غريبا، نلمس فيه معنى العبادة الوقورة، في كلمات هذا الرجل: "ملكوته ملكوت أبدي وسلطانه إلى دَور فدَور". إنه الآن لا يعترف به إلها وحسب، بل بصفته الله الواحد الحق الحي، الذي يسود مُلكه على الجميع، ويدوم إلى الأبد.

لقد عَلِمنا أن "نبوخذ نصر" عرف الحق "notitia"؛ فاعترف به "assensus" وانحنَى لإله السماء "fiducia". إنه لم يعد يضعه في صفوف الآلهة الأخرى. إنه لا يعترف بآلهة أخرى.

لقد حدث تغيير عظيم لـ "نبوخذ نصر"، وما جاء في نهاية الأصحاح يؤكد ذلك بأكثر وضوح: "أنا "نبوخذ نصر"، رفعت عينيَّ إلى السماء، فرجع إليَّ عقلي، وباركت العلي وسبَّحت وحمَدت الحي إلى الأبد، الذي سلطانه سلطان أبدي، وملكوته إلى دور فدور." (34).

ولكن هناك ما هو أكثر، ففي العدد 35 كلمات لـ"نبوخذ نصر" تتضمن أقوى وأشمل تصريح، عن سيادة الله في كل العهد القديم: "وحُسِبت جميع سكان الأرض كلا شيء، وهو يفعل كما يشاء في جند السماء وسكان الأرض، ولا يوجد من يمنع يده أو يقُل له ماذا تفعل".

وليست تلك النهاية بعد، فالعدد الأخير من الأصحاح يحتوي على اعتراف شخصي بإيمان "نبوخذ نصر": "فالآن أنا نبوخذ نصر أسبِّح وأعظِّم وأحمد ملك السماء، الذي كل أعماله حق وطُرقه عَدْل، ومَن يسلك بالكبرياء فهو قادر على أن يذلَّه".

ينتهي الأصحاح الرابع بالمَلك العابد. نراه ينطرح أمام الرب ويعترف به أنه هو الحق والعدل معا. من عبادته نرى دليلا على كل من الحماسة والخشوع. ربما يكون إيمانه ضعيفا، لكنه كان صادقا. ربما كانت معرفته ضئيلة، لكنها كانت حقيقية. إن الحقيقة الهامة هي: أن ذلك الملك تحوَّل، اختلف تماما، لقد تجدَّد.

ما أعجب هذا الأمر المُعجزي! شكرا لله أن هناك تجديدا، فالذي كان ذات مرة شيئا ما، أصبح الآن شيئا آخر. توجد الآن حياة روحية في قلب المَلك.

لكن ما هي تلك الأحداث التي غيَّرته مما كان عليه، إلى ما هو عليه الآن؟ ما الذي بدَّل حال "نبوخذ نصر"؟

أحداث الأصحاح الرابع: تجديد "نبوخذ نصر"

حين نتأمل الأعداد التي أمامنا، نجد نقطتين لهما أهمية خاصة: الأولى، الله هو الذي عمل لتجديد "نبوخذ نصر". ففي العددين 4و5 نتبيَّن أنه عندما كانت كل الأمور تسير على ما يرام، تدخَّل الله، وأعطاه حُلما مُفزِعا؛ فاستدعى مفسِّري الأحلام، ولم يمكن لأحد منهم تفسير الحُلم. لكن باعتبار خبرته السابقة، ما الذي منعه من استدعاء دانيآل؟ إن الجواب هو، أن "نبوخذ نصر" قد فطن إلى ما عساه أن يكون معنى الحلم، وتمنَّى لو أنه لا يصبح حقيقة؛ لذلك لم يطلب الشخص الذي سيُخبره بما لا يريد أن يعرفه.

من الشائع في الأدب البابلي، تمثيل الملك بشجرة، وقد عرف "نبوخذ نصر" جيدا أن الشجرة في حُلمه كانت نفسه، والحيوانات التي تحتها، والطيور في أوراقها الخضراء، كانت حياة المواطنين الذين تحت سيادته وحمايته. وعندما رأى الشجرة تُقطع، وتسقط

لأسفل، عرف أنه هو المقصود بأن يُذلَّ ويُهان. واضح من عدد 17 أن "نبوخذ نصر" قد أدرك أن الله هو الذي سيفعل ذلك به.

لم يستطع "نبوخذ نصر" قبل تجديده أن يواجه حقيقة حالته، فقد كانت حقيقة، لا يريد أن يسمعها؛ لذلك طلب كل مُفسِّري الأحلام الوثنيين، آملا أن يأتوا له بتعبير للحُلم، يختلف عما يدور بداخله؛ ولهذا السبب لم يطلب "دانيآل" لعِلمه أنه سوف يخبره بما لا يريد أن يعرفه.

إنه لا يريد أن يسمع أن الرب سيضع أنفَه في التراب. ولما لم يأت أحد منهم، ليبيِّن تعبير الحُلم، اضطُّر لاستدعاء "دانيآل"؛ ليسمع من نبي الله، ذات الحقيقة التي قد بذل قصارَى جهده أن يتجنبها.

وتخبرنا الأعداد 10 – 16 عن الحُلم:
هناك شجرة، كانت تنمو، وتنمو، وتنمو، إلى أن بلغ علوّها إلى السماء؛ فأينما يكون الإنسان يستطيع رؤيتها. وينزل ملاك، ويصرخ بشدة: "اقطعوا الشجرة واقضبوا أغصانها وانثروا أوراقها وبعثروا ثمرها" (14).

لم تعُد الحيوانات والطيور تتمتع بظلها! الشجرة الجميلة سوف تتحطم! لا شيء يبقى فيها سِوَى ساق أصلها في الأرض، مقيَّدة بقيد من نحاس وحديد.

إن ساق أصلها، ليس شيئا بالمقارنة بالشجرة نفسها، فسيُترك "نبوخذ نصر" في الحقل، ليَبْتَلَّ بندى السماء، وليكن نصيبه مع الوحوش التي ترعى هناك. فسيُؤخذ منه صوابه ورُشده، ويُعطَى قلب حيوان، وتمضي عليه سبعة أزمنة، التي تعني سبع فترات محدَّدة. ونحن لا نعلم إن كانت هذه شهورا، أم سنوات.

في الأعداد 19- 27 يبيِّن "دانيآل" تعبير حُلم "نبوخذ نصر". يفسِّره بمعونة ربِّه الذي أعطاه تلك الموهبة. إنه يتمنَّى الخير للمَلك، ويندهش من الأحكام الثقيلة، التي يوشك الله أن يوقعها عليه.

ورغم تردّده أن يُعلن تفسير الحُلم، أطاع الملك، وبدأ تفسيره للحُلم بالآتي: أيها الملك "نبوخذ نصر"، أنت هو الشجرة. أنت الذي تنمو، وأصبحْتَ عظيما، لكنك ستُقطع. ليس هذا أمرا من ملائكة، بل من الله الذي تخدمه الملائكة (24).

ما الغرض من كل ذلك؟
والإجابة: "حتى تعلم أن العلي متسلط في مملكة الناس، ويعطيها من يشاء" (25).

ويستمر "دانيآل" قائلا: "ولكنك لن تفقد مملكتك، فبعد أن يحدث لك كل هذا، فإن مملكتك تثبت لك، لذلك تُب أيها المَلك".
إن مثل تلك التوبة لن تُوقِف حدوث ما في الحلم، لكنها سوف تُطيل فترة اطمئنانك (27).

كل هذا جاء على "نبوخذ نصر" الملك (28).

وحدث ما في الحلم، كما عبَّره "دانيآل" بكل تفصيلاته (28 – 33).

لقد كانت لحظة إذلال المَلك، هي لحظة أوْج كبريائه، فعند نهاية اثني عشر شهرا، كان يُلقي نظرة على مملكته وهو يتمشَّى على سطح قصره، وقال لنفسه: "أليست هذه "بابل" العظيمة التي بنيتُها لبيت المُلك، بقوة اقتداري، ولجلال مجدي؟" (30).

لقد مضى اثنا عشر شهرا، بعد التنبؤ بسقوطه وإذلاله. ربما ظن أن ذلك لن يحدث في ذلك الوقت، لكن مشيئة الله تتم حسب كلمته التي أعلنها، وفي الوقت المُعيَّن، حتى وإن حسبت التقاويم البشرية أنها تتباطأ.

نعرف من التاريخ، ومن علم الآثار، أن "نبوخذ نصر" كان معماريا عظيما؛ ففي عهده، وتحت إشرافه، أُنشِئت المعابد العظيمة، في جميع أنحاء مملكته، كما شيَّد العديد من المباني الرائعة في "بابل" عاصمة مُلكِه. ومن إنجازاته أيضا، حدائق "بابل" المعلَّقة، التي كانت تُعَد من عجائب الدنيا السبع، لوقت طويل من الزمان. كانت "بابل" مكانا جميلا.

هذه الإنجازات أثارت دهشة المَلك، فملأت قلبه غرورا وكبرياء، ولسان حاله يقول: "أنا الذي عملتُها. لقد احتاجت لقوَّة عظيمة لتكون هكذا، وقد كنت أنا الذي طوَّع تلك القوة. هل توجد عظمة مثل عظمتي؟"

حطَّم الله كبرياء هذا الملك، وكسر قلبه، وأتاهُ صوت من السماء مُعلِنا أن الهلاك قد حان: "إن المُلك قد زال عنك يا "نبوخذ نصر" ويطردونك من بين الناس، وتكون سُكناك مع حيوان البَر، ويطعمونك العشب كالثيران، فتمضي عليك سبعة أزمنة، حتى تعلم أن العليَّ متسلِّط في مملكة الناس، وأنه يعطيها من يشاء" (31و32).

وقد حدث ذلك فعلاً: "في تلك الساعة تم الأمر على "نبوخذ نصر"، فطُرد من بين الناس، وأكل العشب كالثيران، وابتلَّ جسمه بندَى السماء، حتى طال شعره مثل النسور، وأظفاره مثل الطيور" (33).

فقد المَلك عقله، وصار أضحوكة يُرثَى لحالها. أخذ الله عقله، وأعطاه عقل حيوان. طال شعره حتى شابهت خُصله ريش الطيور، وشابهت أظفاره الطويلة، المخالب. عاش في الحقول يأكل العشب ويَبْتلّ بندَى الصباح، مثل الثيران تماما.

يخبرنا كُتَّاب وثنيّون من العالم القديم، أن "نبوخذ نصر" بعد قِتاله في حروبه الكبرى، ورجوعه إلى "بابل"، اختفى فجأة، ثم ظهر لفترة وجيزة قبل موته، على سطح

قصره؛ كي يرى مدينته بكاملها. وكانت تلك هي المرة الأخيرة التي ظهر فيها لمدة طويلة، إلى أن ظهر مرة أخرى قبيل موته.

ويقول كُتَّاب وثنيون قُدامَى آخرون، إنه قد استولى عليه إحساس بالألوهية. بينما يُعلِّق الآخرون بأنه أُصيب بمرض غريب.

لقد ضرب الله المَلك المغرور بمرض "Lycanthropy" وهو مرض يجعل الإنسان يتوهَّم أنه ذئب، وفي الوقت ذاته يكون على وَعْي كاف، يتذكر به حقيقة نفسه. إن الذين يعانون من تلك الإصابة المُخيفة، تَجِدهم يتصرَّفون مثل الحيوان، ويُصدرون الصوت الذي يميِّزه.

خلال القرن التاسع عشر، حدثت حالات عديدة في الجزر البريطانية، أُصيبت بإحدى صور هذا المرض ويُطلق عليه Boanthropy. مثل هؤلاء ظنّوا أنفسهم أنهم ثيران أو أبقار، وتصرَّفوا مثلهم، ونسوا هويَّتهم تماما.

إنها نفس الحالة، التي أذلَّ الله بها أقوَى رجل في العالم؛ عقابا على زهوه وكبريائه؛ كي يتعلَّم درسا روحياً يقوده إلى التوبة، ويكون سببا في تجديده.

طُرِد المَلك من حاشيته، الذين تأمَّلوه بدهشة وهو يأكل العشب كالثيران، وقد ابْتلَّ جسمه بندَى السماء، وطال شعره وطالت أظفاره.

من كان يتصوَّر أن هذا يحدث لملك "بابل"؟! الرجل الذي لم يعرف المستحيل، الذي كان يُنظَر إليه بمهابة وخوف، أُذِلَّ حتى أصبح لا حَوْل له ولا قوة؛ في حاجة إلى شفقة دائمة.

كان هناك غرض رحيم من ذلك القضاء الإلهي، وقد رأينا نتائجه الروحية التي دُوِّنَت في عددي 34و35. عندما أعاد الله لـ"نبوخذ نصر" عقله ورشده، وأعاد إلى

مملكته مجدها السابق، وعاد المستشارون الذين كانوا يحكمون الإمبراطورية خلال غيابه، عادوا يقدمون النصيحة والإرشاد. عاد "نبوخذ نصر" إنسانا جديدا معترفا بإيمانه(عدد37)، وحكم البلاد فترة وجيزة كملك تقيّ، في شركة مع الله.

إن كل تجديد هو معجزة.
كان "نبوخذ نصر" شيئا ما قبل الأصحاح الرابع، وأصبح الآن مختلفا تماما. الله وحده هو من يغيِّر مثل هذا التغيير.

الأمر الثاني الذي يجب أن نلاحظه، هو أن الله عمل هذا، لا برفع الرجل لأعلى، بل بخفضه لأسفل، وهكذا يجدِّد الله الناس.

الله يعمل عمله في نفس الإنسان المتكبِّر، ويحوّله مؤمنا عاقلا. يكسر المتكبرين فيصيرون ودعاء. لقد امتلأ الملك بالكبرياء في يوم من الأيام، عندما تأمل في بابل الرائعة، وانتفخ بشعور الزهو بمنجزاته. وفي جلالته كان ينظر إلى الحدائق والمعابد والمباني الضخمة من حوله، فيرى أنه ليس بحاجة لأحد، وكل ما يأمر به كان ينفَّذ، وما يريده يحصل عليه.

وفي ساعة محدَّدة، فَقَدَ عقله ونَبَش في الأرض، وأكل العشب كالثيران.

وتمر الأسابيع والشهور، تمر سبعة أزمنة – مهما كانت مدتها – وجسمه يبتل بندى السماء. وابتدأ يدرك شيئا: فهو في الظاهر مجنون تماما، يتصرف ويُحدِث صوتا كالحيوان، وقد كان يعتبر نفسه حيوانا، لكن مازال في قلبه وعي داخلي كاف، يمكّنه من التحقق، مما قد أدركه من حقائق في السنين السابقة. الأمور التي قد سمعها والتي صدَّق عليها، تعود إلى ذهنه؛ فيتأكد أن الله هو الإله الوحيد، وأنه ملك السماء.

الآن أصبح على يقين بأن ذلك حقيقة. ويأتي أخيرا إلى fiducia، ويُلزم نفسه بالحقيقة التي اقتنع بها، ألا وهي: أنه لن يعيش لو أنه – هو أو غيره من البشر– ظن أنه

مركز الكون. ولن يسقط ثانية في فخ اعتقاده أن العالم يدور في فلكه هو؛ فقرَّر أن يعيش خاضعا للمَلك الحقيقي، وأن يتوجَّه إلى عرش الله متَوسِّلا، يعانق الله كطفل صغير يعانق أباه؛ على يقين أن الإنسان حين يصبح طفلا صغيرا، يمكنه أن يرَى ملكوت السموات (متى18: 3).

أخيرا نجد هذا الملك العظيم، في المكان الذي يجب أن يكون فيه كل رجل وامرأة. إنه يسجد أمام الله. تغيَّر قلبه. دخل في شركة أبدية مع ملك السماء؛ فاستعاد عقله، وعادت إليه رجولته الكاملة، ورجع إلى مجده السابق.

ها هو قد تعلَّم درْسَه، وهكذا تم تجديده. الله هو الذي جدَّده. لم يرفعه إلى فوق، ولكن أحنى رأسه إلى أسفل، في اتضاع أمام الله الواحد الحق.

درسان علينا أن نتعلمهما
الدرس الأول: يجب ألا نيأس من تجديد أي إنسان؛ فمن كان يصدق أن المَلك القوي، الذي سبَى شعب الله، ومارَس ضغوطاً شديدة من أجل أن تشاركه البقية التقية في عبادة الأوثان، سيصبح هو نفسه في شركة مع الله؟ لقد كان من المستحيل أن المَلك – وهو أقوَى رجل في العالم – الذي أجبر من هم في السبْي عام605 ق.م، أن يخرّوا ساجدين للوثن، يصبح الآن واحدا من شعب الله، واحدا من تلك البقيَّة التقيَّة!

مع الله ليس هناك مستحيل !!

أليس عجيبا أن نراه في نهاية الأصحاح، طفلا صغيرا عند أقدام الله، يضع نفسه متوسِّلا، متعبِّدا، يسبِّح ويحمد ويعظِّم ملك السماء؟!
مادام إله "نبوخذ نصر" موجودا، فلا نيأس من تجديد أي إنسان. كثيرا ما نجرَّب باليأس من الاستمرار في عملنا المسيحي؛ إذ نرى أناسا كثيرين من حولنا، يبدون غير مبالين، متقسِّين، يلهثون وراء مُغريات الدنيا، يهتمون بها أكثر من اهتمامهم بأمور الله. وحين تقدم إليهم الرسالة، يُهمِلونها أو يعارضونها بسُخرية، هاذرين علينا بأقوال خبيثة!!

هؤلاء يَبْدون وكأن من المحال أن تصل إليهم نعمة التجديد، فنستَسلِم نحن لليأس، ويصعب علينا أن نتخيَّل وجود شخص آخر، أكثر بعدا عن الله منهم، وننسَى قدرة الله الفائقة، التي كسرت "نبوخذ نصر". فمن ذا الذي يصعب على الله أن يجتذبه؟

الله لا يصعب عليه أمر، فما اعتبرناه مُحالا مِن قَبل، أصبح للعيان حقيقة، ويستطيع الله أن يعمله ثانية.

واجبنا أن نستَمِر في العمل دون يأس. نستمر لربح النفوس، واثقين في قوة الرب القادرة أن تخلِّص وتجدِّد. فلن يستطيع أن يقاومها في النهاية، أحد أولئك الذين يريد الله أن يخلِّصهم. إن ما نعجز نحن عن عمله، يستطيع هو أن يتمِّمه. علينا أن نعمل دون يأس.

أما الدرس الثاني الذي نتعلَّمه من هذا الأصحاح، فهو لأولئك الذين لم يتجدَّدوا بعد. السبب في عدم خلاصك للآن -رغم اهتمامك بقراءة الكتاب المقدس- هو أنك لم تتَّضِع بعد بدرجة كافية. لازلت مُعجَبا بنفسك، تَختال في كبريائك. أنت تَعِي تماما، أنه يجب أن تأتي كطفل أمام الرب، إلا أن كبرياءك تمنعك من أن تأتي، خاضعا أمام العرش الإلهي. إن إحساسك بأنك شخص مهم؛ يمنعك من أن تأتي متوسِّلا إلى المَلك.

إنني أكتب إليك بأكثر صراحة. لقد حان الوقت لتواجه حقيقة: أنك مادمت محبًّا لذاتك دون محبة الله، فالله لن يُخَلصك. عليك أن تَفقد اعتبارك لذاتك (أن تنكر نفسك).

لم يكن للعشار قدرة على رفع عينيه إلى السماء، فقال صارخا من قلبه: "اللهم ارحمني أنا الخاطيء" (لو18: 13). والمثقف العظيم – شاول الطرسوسي – جاء مُرْتعدا، مُتحيِّرا وضارعا: "يا رب ماذا تريد أن أفعل؟" (أعمال9 : 6). وسجان "فيلبي" سجد على ركبتيه، وقال: "ماذا ينبغي أن أفعل لكي أخلص" (أعمال16: 30).

إن كل الذين يأتون إلى الله، من خلال المسيح، يجب أن يسلكوا نفس الطريق الذي سلك فيه هؤلاء.

إن الطريق الوحيد لنقترب من الله العلي، هو أن نكون في أدنَى مقام على الإطلاق. إن تجديد "نبوخذ نصر" يبيِّن لنا أن الرب يسوع يخلِّص الناس الذين في هذا المقام. "لم يأت ليدعو أبراراً بل خطاة إلى التوبة" (مرقس2: 17).

إن أعظم رحمة يقدِّمها الله للخاطيء هي أن يخفضه، فيصبح في أمان؛ إذ يصبح الطريق الوحيد الذي يجب أن يوجِّه إليه عينيه، هو إلى أعلى. فالسماء هي المكان الوحيد الذي يمكنه أن يتوسَّل إليه.

تحذير نهائي

لأولئك الذين يرفضون الركوع عند أقدام الله: تنبَّهوا والتفتوا لتحذير نهائي. الله قادر أن يأخذ عقل الإنسان، إذا ما داوم رفضه لصوت الله وتحذيراته. "يكسرك ولا شفاء" (أمثال29 : 1). إذا أخذ عقلك، فكيف تدعو الله وتطلب رحمة منه عندئذ؟!

اليوم يعطيك العقل، فلماذا لا تطيع ما تدرك أنه الحق ؟!
غدا قد يقول الرب كفَى!! ويتركك دون قُدرة على تمييز الحق وتصديقك عليه، ناهيك عن فقدان الثقة في هذا الحق.

يجب أن لا تخاف من أن تنكسر أمام الرب. إنه يجبر ما قد كسره، فهو لا يحتقر القلب المنكسر والمنسحق (مزمور51: 17). ولا نخف من أن يكون الرب هو المتسلط في حياتنا؛ فكل أعماله حق، وطرقه عدل (37).

ألا يجدر بنا ونحن نختم هذا الفصل، أن نتضرَّع لجلاله مُعترفين بضآلة أنفسنا أمامه. إن الرب لا يُرحِّب بأولئك المُعجَبين بأنفسهم، بل بالأحرى يرحِّب بذوي الأيدي الخاوية، الذين لا يَجِدون ما يدافعون به عن أنفسهم. أولئك لن يتركهم أبدا.

أُذُن الله لا تصغي للصلوات التي من المرتفعات البشرية، بل يسمع ويعطي أُذنه لنداءات اليأس، التي تخرج من الأعماق. إنه لا يتوقَّع منا أن نعيش حياة كاملة بل أن نُرضيه –وبدون إيمان لا يمكن إرضاؤه- لأن المسيح، عاش هذه الحياة الكاملة بالنيابة عنا. لا يوجد قصاص على خطايانا يعاقبنا به؛ فالابن الوحيد الذي أرسله قد حملها عنا.

كل نداءات الكبرياء تناقض هذه الحقائق العظيمة، لكن صرخات القلوب المنكسرة المتواضعة يستمع إليها. لهذا كان على "نبوخذ نصر" أن ينزل إلى الهوان؛ قبل أن يدخل في حياة الشركة مع الله .

هل يمكنك الآن أن تستبدل اسم "نبوخذ نصر" في العدد الأخير من هذا الأصحاح باسمك، معترفا بإيمانك، قائلا: فالآن أنا... أسبِّح وأعظِّم وأحمد مَلِكَ السماء، الذي كل أعماله حق وطرقه عدل.

من يسلك بالكبرياء فهو قادر أن يذلَّه.